٦
زفرة حرّى

كان بموضع فيه واديان سُمِّي بهما، وكان يجلس بينهما. فخرج يوماً يريدهما فلما صار قريباً من الواديين أنشأ يقول:

[الطويل]

أَلا لا أَرى وادي الـمـيـاهِ يُـثِـيـبُ
ولا الـنَّـفْـسُ عَـنْ وادي الـمـيـاهِ تَـطِـيـبُ[١]

أُحِـبُّ هـبـوطَ الـوادِيَـيْـنِ وإنَّـنـي
لَـمُـشْـتَـهِـرٌ بِـالـوادِيَـيْـنِ غَـريـبُ[٢]

أَحَـقًّـا عِـبـادَ الـلَّـه، أَنْ لَـسْـتُ وارداً
ولا صـادِراً إلا عـلـيَّ رَقـيـبُ[٣]

ولا زائـراً فَـرداً ولا فـي جَـمـاعَـةٍ
مِـنَ الـنَّـاسِ إلا قِـيـلَ: أَنـتَ مُـريـبُ[٤]

وهَـلْ ريـبَـةٌ فـي أَنْ تَـحِـنَّ نَـجـيـبَـةٌ
إلـى إلْـفِـهـا أَو أَنْ يَـحِـنَّ نَـجـيـبُ[٥]

وإنَّ الـكَـثِـيـبَ الـفَـرْدَ مِـنْ جـانِـبِ الـحِـمَـى
إلَـيَّ وإنْ لـم آتِـهِ لَـحَـبـيـبُ[٦]

---

(١) يثيب: يرجع والجسم أقبل وعادت صحة صاحبه. يعلم الشاعر أن الماضي لن يعود ولو رجع إلى مربع حبه حيث كان ينعم بحب ليلى وقربها منه.
(٢) أحبّ هبوط الواديين: النزول بهما. لمشتهر غريب: يعرّف بأنه غريب بسلوكه.
(٣) وارداً: آتياً. صادراً: مغادراً.
(٤) مُريب: موضع شك وريبة.
(٥) النجيبة: الناقة الكريمة، والنجيب: الفحل من الجمال الكريمة.
(٦) الكثيب: المرتفع من الرمال. تآلف الشاعر وحبّه لمن يهوى جعله يحبُّ حتى الكثبان المحيطة بربع ليلى ومضارب قومها.

ولا خَيْرَ في الدنيا إذا أَنتَ لم تَزُرْ
حبيباً ولم يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَبيبُ[١]
لَئِنْ كَثُرَتْ رُقَّابُ لَيْلَى فَطَالَما
لَهَوْتُ بِلَيْلَى ما لَهُنَّ رَقيبُ[٢]
وإِنْ حالَ يَأْسٌ دُونَ لَيْلَى فرُبَّما
أَتى الْيَأْسُ دُونَ الشَّيْءِ وَهْوَ حَبيبُ[٣]
وَمَنَّيْتِنِي حَتَّى إذا ما رَأَيْتِني
على شَرَفٍ لِلنَّاظِرينَ يُريبُ[٤]
صَدَدْتِ وأَشْمَتِّ الْعُداةَ بِهَجْرِنا
أَثابَكِ فيمَا تَصْنَعينَ مُثيبُ[٥]
أُبَعِّدُ عَنْكِ النَّفْسَ والنَّفْسُ صَبَّةٌ
بِذِكْرِكِ والمَمْشَى إِلَيْكِ قَريبُ[٦]
مَخَافَةَ أَنْ تَسْعى الْوُشاةُ بِظِنَّةٍ
وأُكرِمُكُمْ أَنْ يَسْتَريبَ مُريبُ[٧]

---

(١) جمال الحياة ودفؤها أن يكون الحبّ متبادلاً بين الأحبّة.

(٢) ينعى الشاعر على أهل ليلى وكثرة الرقباء أنه لها معها قبل ذلك.

(٣) حال: منع. يقصد الشاعر باليأس هنا عدم لقاء حبيبته، وقد يكون اليأس محبباً؛ فثمة قضية مصيرية بالنسبة للشاعر، فالوقت كفيل بتحقيق الأماني.

(٤) و (٥) كان موعد لقاء، ولكنّك ما إن علمتِ أنّني مصدر اتهام وشكٍّ حتى تخليت عن ذلك؛ فكان منك الصدود وشماتة الأعداء ولهذا فرحوا فأثابوك على تمنّعك وإخلافك الوعد.

(٦) و (٧) يعبّر الشاعر عن تجربة مقاومة فاشلة من قبله علّه يتخلّص من ربقة الحبِّ، ولكنّ الحبّ ينتصر؛ فهو عاشق ففي حال تذكر حبيبته الطريق مفتوحة له لقربها منه. والمشكلة أن هناك الوشاة، وهو موضع شك وريبة، فألسنتهم تلوك سيرته وسيرة من يحبّ. لذا صوناً لسيرة حبيبته يمتنع عن القيام بزيارتها، وخوفاً على سمعتها.

فقد جُعِلَتْ نَفْسي ـ وأَنتِ اخْتَرَمْتِها
وكُنْتِ أَعَزَّ النَّاسِ ـ عَنْكِ تَطيبُ[١]
فلو شِئْتِ لم أغْضَبْ عليكِ ولم يَزَلْ
لَكِ، الدَّهْرَ، مِنِّي ما حَيِيتُ نَصيبُ[٢]
أما والَّذي يَتْلُو السَّرائِرَ كُلَّها
وَيَعْلَمُ ما تُبْدِي بِهِ وتَغيبُ[٣]
لَقَدْ كُنْتِ مِمَّنْ تَصْطَفي النَّفْسُ خُلَّةً
لَهَا دُونَ خُلَّانِ الصَّفَاءِ حُجُوبُ[٤]
وَإِنِّي لأَسْتَحْيِيكِ حَتَّى كأَنَّما
عَلَيَّ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مِنْكِ رَقيبُ[٥]
تَلَجِّينَ حَتَّى يَذْهَبَ الْيَأْسُ بِالْهَوَى
وحَتَّى تَكادَ النَّفْسُ عَنْكِ تَطِيبُ[٦]
سَأَسْتَعْطِفُ الأَيَّامَ فِيكِ لَعَلَّها
بِيَوْمِ سُرُوري في هَواكِ تَؤُوبُ[٧]

(١) والشاعر لا يبخل بالتضحية بنفسه في سبيل صيانة من يحبّ، رغم أنها مهلكته. اخترمتها: أمتّها.
(٢) يطمئن الشاعر حبيبته بدوام إخلاصه وحبّه لها، ولن يغضب إذا أرادت ألّا تلاقيه.
(٣) يقسم الشاعر بعلّام القلوب والسرائر بإخلاصه وتكريس حبّه لها من دون سائر المخلصين في الحبّ.
(٤) الخلّة: الحبيبة. خُلّان الصفاء: المخلصون في ودّهم.
(٥) من طبيعة الشاعر الحياء، لذا فهو يضطرب إذا التقاها وكأنها رقيب عليه تُحصي عليه نظراته وهمساته.
(٦) تلجين: تلحّين. يلوم الشاعر محبوبته على موقفها من التمنّع والصدود، فالحبّ بحاجة إلى وصفة إخلاص وصدق بالعاطفة ليدوم وإلّا فإنه إلى انحسار ومن ثَمَّ إلى زوال.
(٧) تؤوب: تعود. ينظر الشاعر بتفاؤل بأن الزمن كفيل بتبديل عذابه بسرور تأتي به الأيام، ونجم سعده برضى من يحبّ يسطع في سماء حياته.

أَلا أَيُّـــهـــا الـــبـــيـــتُ الَّـــذي لا أَزورُهُ
وَهِـــجْـــرانُـــهُ مِـــنِّـــي إِلـــيـــهِ ذُنـــوبُ[١]
هَـــجَـــرْتُـــكَ مُـــشْـــتـــاقـــاً وَزُرْتُـــكَ خَـــائِـــفـــاً
وَفـــيـــكَ عَـــلَـــيَّ الـــدَّهْـــرَ مِـــنْـــكَ رَقـــيـــبُ[٢]
وأُفْـــرِدْتُ إِفْـــرادَ الـــطَّـــريـــدِ وبـــاعـــدتْ
إِلـــى الـــنَّـــفـــسِ حـــاجـــاتٌ وهـــنَّ قَـــريـــبُ[٣]
لـــئـــن حـــال يـــأْســـي دونَ لـــيـــلـــى لَـــرُبَّـــمـــا
أَتـــى الـــيـــأْسُ دُونَ الأَمْـــرِ فَـــهْـــوَ عَـــصِـــيـــبُ[٤]
جَرى السَّيْلُ فاستبكاني السَّيْلُ إذ جرى
وَفَـــاضَـــتْ لَـــهُ مِـــنْ مُـــقْـــلَـــتَـــيَّ غُـــرُوبُ[٥]
وَمـــا ذاكَ إِلَّا حِـــيـــنَ أَيْـــقَـــنْـــتُ أَنَّـــهُ
يَـــكـــونُ بِـــوادٍ أَنْـــتَ مِـــنْـــهُ قَـــرِيـــبُ[٦]
يَـــكـــونُ أُجـــاجـــاً دونـــكـــم فـــإذا انـــتـــهـــى
إِلـــيـــكـــم تـــلـــقَّـــى طـــيـــبَـــكُـــم فـــيَـــطـــيـــبُ[٧]

(١) و (٢) في هذين البيتين تبدو مشكلة الشاعر؛ فحبّه لساكني البيت الذي كان قبلته فيزوره كلّما أراد، أما الآن فالأمر مختلف فرغم حبّه لمن يزور فإنه لا يستطيع فالرقباء والكاشحون يثيرون في نفسه الخوف فلا يجرؤ على الاقتراب منه.

(٣) ثمة مقاطعة للشاعر، رغم أنه لم يقترف ذنباً ورغم ما في أعماقه من مشاعر الحبّ الصادق الذي على استعداد لبذله.

(٤) اليأس يتملّك الشاعر من رضى حبيبته، وهو يتمنّى ألّا يكون هناك أمر جليل يحول دون استمرار حبّهما.

(٥) و (٦) الغُروب، واحدها غرب: وهو عرق في العين لا يتوقّف عن إمداد العين بالدمع. سيل منهمر يجري فيذكر الشاعر بعذاباته فيبكي لحاله.
فالسيل ينساح بوادٍ قريب من ديار ليلى؛ فالماء يزور ديارها والشاعر لا يقدر على ذلك. وهذا ما يزيد من آلامه وأحزانه.

(٧) الأجاج: المالح. السيل هائج مائج مالح فإذا ما نزل بديار من يحب سكن وطاب لذا فهو أحسن حالاً من الشاعر.

فيا ساكِني أَكْنافَ نَخْلَةَ كُلُّكُمْ
إلى القَلْبِ مِنْ أَجْلِ الحبيبِ حَبيبُ[١]
أَظَلُّ غَريبَ الدَّارِ في أَرْضِ عَامِرٍ
ألا كُلُّ مَهْجُورٍ هناكَ غَريبُ[٢]
أرى أَهْلَ ليلى أَوْرَثوني صَبابَةً
وَما لي سِوَى ليلى الغَداةَ طَبيبُ[٣]
إذا ما رَأَوْني أَظْهَرُوا لِي مَوَدَّةً
وَمِثْلُ سُيوفِ الهِنْدِ حينَ أَغِيبُ[٤]
فَإِنْ يَمْنَعُوا عَيْنَيَّ مِنْها فَمَنْ لَهُمْ
بِقَلْبٍ لَهُ بَيْنَ الضُّلوعِ وَجِيبُ[٥]
لَئِنْ كان يا ليلى اشْتِياقي إِلَيْكُمُ
ضَلالاً وفي بُرْئي لأَهْلِكِ حُوبُ[٦]
فما تُبْتُ مِنْ ذَنْبٍ إذا تُبْتُ مِنْكُمُ
وما النَّاسُ إِلَّا مُخْطِئٌ ومُصيبُ[٧]

(١) أكناف، مفردها كنف. نخلة: اسم مكان. يستحيل كلّ شيء في ذاك المكان لمجاورته إلى ديار حبيبته حبيباً.
(٢) يعاني الشاعر مأساة الإبعاد والغربة عن ديار حبيبته، وما ذنب الشاعر بذنب عظيم سوى أنه أحبّ من بتلك الديار فأبعد عنها.
(٣) الصبابة: شدّة العشق. يعاني الشاعر حالة مرضيّة فأهل ليلى هم مسببو آلامه ومرضه، فثمة طبيب يساعد على شفائه ألا إنها ليلى محبوبته.
(٤) المودّة: الصداقة. أهل ليلى مراؤون فهم في حال مجيئه يستقبلونه باشّين مرحّبين، ولكنّهم يرسلون سهام ألسنتهم كأنها سيوف الهند حين يرحل عنهم.
(٥) الوجيب: الاضطراب. تتمثّل مشكلة الشاعر أن أهل ليلى يستطيعون منعه من رؤيتها، ولكنهم لا يملكون منعه من حبها، فهم يملكون مصيرها في الظاهر ولكنهم لا يقدرون على منعه من حبّها لأن حبّها متمكن من شغاف قلبه.
(٦) و (٧) الحوب: الإثم، الجرم. يوجّه الشاعر كلامه إلى حبيبته مدافعاً عن موقفه، =

بِـنَـفْـسـي وَأَهْـلـي مَـنْ إذا عَـرَضُـوا لَـهُ
بِـبَـعْـضِ الأَذَى لَـمْ يَـدْرِ كـيـفَ يُـجِـيـبُ[١]
ولـم يَـعْـتَـذِرْ عُـذْرَ الـبَـريءِ ولـم يَـزَلْ
بِـهِ سـكـنـةٌ حـتَّـى يُـقـالَ: مُـريـبُ[٢]
فـلا الـنَّـفْـسُ يُـسْـلـيـهـا الـبُـعـادُ فَـتَـنْـثَـنـي
وَلا هِـيَ عَـمَّـا لا تَـنَـالُ تَـطِـيـبُ[٣]
وكـم زَفْـرَةٍ لـي لَـوْ عـلـى الـبَـحْـرِ أَشْـرَقَـتْ
لأَنْـشَـفَـهُ حَـرٌّ لَـهـا وَلَـهـيـبُ[٤]
وَلَـوْ أَنَّ مـا بـي بـالـحـصـى فَـلَـقَ الـحَـصَـى
وَبِـالـرِّيـحِ لَـمْ يُـسْـمَـعْ لَـهُـنَّ هُـبـوبُ[٥]
وأَلْـقَـى مِـنَ الـحُـبِّ الـمُـبَـرِّحِ لَـوْعَـةً
لـهـا بَـيْـنَ جِـلْـدي وَالـعِـظـامِ دَبِـيـبُ[٦]

= فحبّه لها وإخلاصه وشوقه لا يعتبر ذلك ذنباً. وإن كنت ترين ذلك، كما أني تخلّصت من أهلك؛ فأنا لا أزال على موقفي وقد يختلف الناس في الحكم بين مصيب ومخطئ في هذه الحالة.

(١) و (٢) لا يكشف الشاعر عمّا يعانيه في حبّه، فلا يجيب سائلاً، لذا لا يعتذر فيبرّئ نفسه، بل يصمت ممّا يثير الشكوك والريب حول موقفه لذا يضحي بنفسه وأهله ليحافظ على سرّ مقدّس.

(٣) مشكلة الشاعر أن البعد لا يسليه علّه ينسى حبّه، بل على العكس يزيده البعد عشقاً وحبًّا، لذا لن يعود إلى رشده ولن ترتاح نفسه، فهو دائم اللهفة، فلذّة الألم تزيده إلحاحاً لأنه لم ينل ما أراد وطلب.

(٤) يعاني الشاعر احتراقاً نفسياً؛ فلو أن زفرة واحدة حرّى أرسلها إلى البحر لجفّ لشدّة ما تحمله من أسًى ولوعة.

(٥) المشاركة الوجدانية من الطبيعة تتفاعل وتشارك الشاعر ألمه، فالحَصى ينشقّ كبدها لما في الشاعر، حتى الريح العاتية المزمجرة لم يعد يسمع لها صوت.

(٦) تبرّح الحب: توهّجه وشدّته. وطأة الحبّ آلمت الشاعر فتخلّلت الجلد والعظام؛ فهي تسري في الضلوع.